ما دامت تخدم إجرائياً في الفهم والتفسير والتحليل.

والأدب، والشعر بخاصة، ليس وثيقة جمالية بحتة، إنما هو أيضاً وثيقة اجتماعية ثقافية، قادرة، رغم الطابع التخييلي الذي يميزها، على تجلية تمثيلات الثقافة العراقية لمشكلات المجتمع والدولة والإنسان. وهي بكل تأكيد ليست محاولة يسيرة، فهي تظلّ محفوفة بمخاطر الانزلاق إلى الدمج بين الموقف الذاتي العابر والمشكل الموضوعي. ولكن هذا بحد ذاته صار، كما يبدو لي، في الدراسات التي تؤرخ ثقافياً لطبيعة مجتمع ما محلّ اعتبار ويقوم أيضاً مقام دليل تفسيري.

إن هذا الكتاب هو تأريخ للثقافة العراقية الحديثة، ولكنه ليس تأريخاً يعتمد التسلسل الزماني، وإن لم يعدم ذلك، إنما هو في الأصل نوع من كشف الغطاء عن التدفقات والمسارب والانحناءات والتحركات الدقيقة التي جرت جميعها داخل هذه الثقافة. وليس بوسع أحد، والكاتبة نفسها لم تفعل ذلك، أن يزعم الإحاطة بكل تلك الخريطة الفكرية، ولكنها بوسعها أن تزعم أنها قدمت صورة جديدة، أو تمثيلاً جديداً، لتمثيلات هذه الثقافة لمفهوم النهضة.

قراءة علي حاكم صالح

الكينونة والزمان
مارتن هيدغر
(دار الكتاب الجديد)

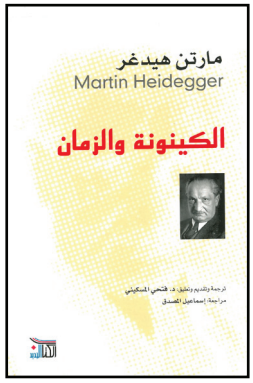

هنالك العديد من الكتب المؤسسة في المعتمد الغربي ظلّ مكانها شاغراً في الثقافة العربية. وقد سدّت الفراغ إعادة الكتابة التي تمثلت في كتب تُعلّق على الأصل أو مقالات تستعرضه بابتسار وتسرّع.

وكتاب الكينونة والزمان لمارتن هيدغر الصادر عام ١٩٢٧ مثال بارز على هذه الحالة المؤسفة. لقد كُتب وتُرجم الكثير عن هذا الكتاب، وورد ذكره في متون ما لا يحصى من الدراسات حتى تولّد الانطباع أنه لابد قد ترجم إلى العربية في مكان ما. ويبقى القارئ يجد صعوبة في فهم امتناع مترجمين كبار من بينهم عبد الرحمن بدوي وفؤاد كامل وعبد الغفار مكاوي وغيرهم كثيرون عن ترجمة هذا الكتاب التأسيسي المحوري في تاريخ الفكر الغربي عموماً والفلسفة الوجودية التي انشغلوا بنقلها إلى العربية خصوصاً. كما أن القارئ وهو يشهد صدور ترجمة الكتاب إلى العربية في وقت متأخر كهذا (عام ٢٠١٢) ليتساءل عما كان سيعنيه صدور ترجمة مبكرة له في الخمسينات أو الستينات إبان تصدّر الوجودية

المشهد الفكري في أوربا و البلدان العربية. لقد تأثر الكثير ممن خرجوا على الوجودية الفرنسية وحاولوا تفنيدها من معطف هيدغر الذي أطلقها أولاً، وبينهم بول ريكور وهانز جورج غادامير وميشال فوكو وجاك دريدا وغيرهم. وهو ما يدل على أن غزارة الفتوحات الفكرية للكتاب لا يحدّها مذهب فلسفي بعينه.

ربما ساعد على اقتراح إجابات عن هذه الأسئلة التدقيق في الظروف التي أتاحت صدور الكتاب بالعربية أخيراً. يعود الفضل في إنجاز هذه المهمة التي طال أمدُ تأجيلها إلى المفكر والأكاديمي التونسي د. فتحي المسكيني، وهو أستاذ متخصص في الفلسفة مارس تدريسها في جامعة تونس منذ عام ١٩٩٠ وحاز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة منها في حزيران ٢٠٠٣. لكن المسكيني لم يكتف بالشهادة الأكاديمية وسيلة للرزق والانزواء فأصدر العديد من الدراسات الفلسفية المتخصصة منها هيغل والميتافيزيقا: دراسة تأويلية لعلم المنطق (١٩٩٧)، وفلسفة الثوابت (١٩٩٧)، والهوية والزمان: تأويلات فينومينولوجية لمسألة «النحن» (٢٠٠١)، ثمّ نقد العقل التأويلي أو فلسفة الإله الأخيرة: هيدغر من الأنطلوجيا الأساسية إلى تاريخ الوجود (٢٠٠٥)، والهوية والحرية: نحو أنوار جديدة (٢٠٠١). وهي قائمة من الإصدرات تؤكّد انهماك المسكيني في مشروع فكري جادّ متخصص يجمع الرصانة الأكاديمية والمغامرة النقدية المفارقة. فضلاً عن ذلك، ترجم المسكيني كتباً مهمّة لفردريك نيتشه وإيمانويل كانط وهانز كولر.

المقوم الثاني لإنجاح مهمة نقل الكتاب إلى العربية هو حرص دار الكتاب الجديد المتحدة على اقتناص الشواغر العسيرة المؤجلة في الثقافة العربية للتصدي لمهمة ملئها بصبر ودأب. يخبرنا المسكيني في مقدمته أنه بدأ الترجمة في تموز ٢٠٠٣ وانتهى منها في أيلول ٢٠٠٩ وهو ما يعني أن الترجمة التي بين أيدينا كانت حصيلة جهد امتد ست سنوات من المتابعة والعمل الدؤوب، وثلاث سنوات من المراجعة بين دار الكتاب الجديد المتحدة والمراجع الخبير الأستاذ إسماعيل مصدّق.

إن أحد أهم أسباب التأجيل الطويل لمهمة نقل الكتاب إلى العربية ما عُرف من صعوبته واعتماده الابتكار اللغوي وسيلة لاستكشاف مناطق لم تتعمق فيها الفلسفة الغربية قبل هيدغر. وهي صعوبة عانى منها قراء الكتاب الألمان قبل غيرهم. ويناقش المسكيني مسألة إن كان متاحاً نقل كتاب هيدغر إلى لغة أخرى من حيث الإمكان فيذكرنا أن الكتاب قد تُرجم إلى اليابانية عام ١٩٤٠، والإسبانية عام ١٩٥١، والايطالية ١٩٥٣، والانجليزية ١٩٦٣، والفرنسية ١٩٦٤ ثم ١٩٨٦. كما أنه نقل إلى لغات أقل انتشاراً مثل الكرواتية والسلوفاكية والأستونية (ص ٢٧). أما العوامل التي تساعد على ترجمته إلى العربية فبينها كما يورد المترجم أن هيدغر أقرب إلى العربية (التي عرفت التوحيد) منه إلى الصينية مثلاً التي لم تعرف الديانات التوحيدية (ص ٣٢). كما أن جهود المترجمين العرب (وخصوصاً عبد الرحمن بدوي وتلامذته فؤاد كامل ومحمود رجب وعبد الغفار

مكاوي وغيرهم) في نقل التراث الفلسفي الوجودي قد تواصلت منذ عام ١٩٦٤ ووفرت حصيلة اجتهادية غزيرة في نقل المصطلح الفلسفي بالرغم من أنها لم تقترب من ترجمة كتاب الكينونة والزمان نفسه. ويشير المترجم إلى محاولتين مشتركتين لنقل فصول من الكتاب قام بهما جورج كتورة وجورج زيناتي عام ١٩٨٨، وموسى وهبة وبسام حسن عام ٢٠٠٣. كما أنه يقرّ بفضل ترجمات عربية عديدة لفلاسفة التأويل والظاهراتية الكبار خلال العقود الماضية أعانته في مهمته العسيرة هذه. إن كل هذا التراث الترجمي المتراكم ينبهنا إلى أحد العوامل التي أجّلت ترجمة الكتاب وهو الحاجة إلى إنضاج المصطلح الفلسفي الهيدغري عبر جهود متضافرة مديدة.

ويبقى السؤال الأهم المتعلّق بتقويم مستوى هذه الترجمة مفتوحاً أمام تدقيق الدارسين والقراء. لكن المؤكّد أن القراءة الأولى لكتاب مثل الكينونة والزمان لن تكون قراءة سلسة هيّنة. لابد للقارىء من التوفر على معرفة كافية بالفلسفة الغربية عموماً، والظاهراتية التأويلية على وجه الخصوص. ولا بد من الصبر والتدبّر أمام صعوبات النص ومقاومته لأيّ قراءة متسرعة. المؤكد أيضاً أن فتحي المسكيني لم يترجم عبارة دون أن يدققها تدقيقاً أكاديمياً متأنياً ويكوّن عنها معنى واضحاً في مكافئ عربي مفهوم. وهو ما يجعل التفكر الطويل في العبارات مجزياً ومنتجاً. لكن مما يفاقم في صعوبة قراءة هذه الترجمة الرصينة فضلاً عما ذُكر أنها تحتوي على بعض خصوصيات «فصحى المغرب العربي» التي تستلزم من القارئ العربي المشرقي بعض الجهد في التعرف عليها وألفتها قبل أن يتمكن من الاسترسال في القراءة. علماً أن المسكيني لم يحاول تقريب النصّ أو الحدّ من غرابته (كما فعل المترجمان إلى الإنكليزية جون ماكري وإدوارد روبنسن مثلاً)، فقد حرص على استبقاء الخصائص الأسلوبية المعقدة والمربكة للقارئ في لغة هيدغر الفلسفية وهو ما تلقته العربية لما لها من تراث فلسفي صوفي عريق وإرث شعري واسع بمرونة واقتدار.

يستشهد المترجم في مقدمته بمقولة هيدغر أن «الترجمة لن تكون تفسيراً فحسب بل تراث» (ص ٢٢). ومن المؤكد أن صدور هذه الترجمة الرائعة لكتاب فريد كهذا تُعَدُّ إغناءً سخياً للتراث الفلسفي العربي ولعربية النصوص الفلسفية على حد سواء.

قراءة فلاح رحيم